مقياس البلاغة العربية

مدخل إلى علم البلاغة العربية

– **البيان والفصاحة والبلاغة**: تأتي مصطلحات البيان والفصاحة والبلاغة مقترنة ببعضها في كثير من الأحيان، بل قد يستعمل أحدها مكان الآخر في بعض السياقات، وفي حدّ البيان قال الجاحظ: المعاني القائمة في صدور الناس، مستورة خفية، لا يعرف الإنسان ما في ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان.

ويقول أيضا: البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، لأن مدار الأمر إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان.

ثم حصر البيان في خمسة أشياء، هي: اللفظ ثم الإشارة ثم العقد (البيان بالحساب) ثم الخط ثم الحال، وذكر أن الإشارة تكون بالرأس وبالعين والحاجب والمنكب وبالثوب وبالسيف، فرافع السيف والسوط قد يتهدد فيكون ذلك زاجرا ورادعا. وذكر أنّ الإشارة واللفظ شريكان، وأنها نعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ.

وبيّن أن حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان. روي أن أحد المتكلمين يدعى أبا شمر كان إذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرّك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى

ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام، فاضطره بالحجة وبالزيادة في المسألة حتى حرّك يديه وحل حبوته، وحبا إليه حتى أخذ بيديه.

وكما ذهب إلى أن الإشارة قد تستعمل للإسرار دون الإعلان، كقول بعضهم:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ..... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ..... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وأما الحال فهي الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان. ولذلك قيل: (سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا).

- الفصاحة:

قال تعالى على لسان موسى (عليه السلام): (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني، إني أخاف أن يكذّبون)، قال الآلوسي في تفسير "يصدقني": أي يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار. وجاء في الحديث الشريف: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش). وقال عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه):

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة ..... كانت فصاحته تنبيك بالخبر

وقال ابن فارس في معنى الفصاحة في اللغة: الفاء والصاد والحاء أصل يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ فِي شَيْءٍ وَنَقَاءٍ مِنَ الشَّوْبِ، فمن ذلك اللسان الفصيح: ومعناه الطليق، والكلام الفصيح: وهو العربي، وأصل ذلك قولهم: أفصح اللبن إذا سكنت رغوته. قال الشاعر: وتحت الرغوة اللبن الفصيحُ.

وأورد الزبيدي في "تاج العروس" أن: الفصاحة: هي البيان، وذكر أن أئمة الاشتقاق وأهل النظر قالوا: مدار تركيب الفصاحة على الظهور، وأئمة المعاني والبيان قالوا: حيث ذكر أهل اللغة الفصاحة فمرادهم بها كثرة الاستعمال، وقد يستعملونها مرادفة للبلاغة.

وهذا ما جاء به أبو العباس ثعلب (ت291هـ) في كتاب "الفصيح" حيث قال: (هذا كتاب اختيار فصيح الكلام، مما يجرى في كلام الناس وكتبهم، منه ما فيه واحدة والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك، فاخترنا أفصحهن، ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما، وألفناه أبوابا).

ففي كلامه هذا دلالة على أن مدار الفصاحة كثرة الاستعمال. وكثرة الاستعمال لا تكون إلا للألفاظ التي سهلت وسيغت على الألسن، ولذلك فرّق ابن سنان الخفاجي بين الفصاحة والبلاغة بقوله: (والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في الكلمة بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة. وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً).

ومن ذلك يظهر اتصاف الكلمة والكلام والمتكلم بالفصاحة، أما **الكلمة** فإن العلماء يذكرون أشياء إذا خلصت منها عدّت فصيحة، هن: تنافر الحروف: وذلك عند تقارب مخارج الأصوات المكونة لها نحو: الهُعْخُع (نبت)، والنقاخ (الماء العذب)، أو عدم موائمة بعضها بعضا نحو الظش والشظف (الخشن). وغرابة اللفظ: بأن يكون وحشيا خفي المعنى، نحو: افرنقع واطلخمّ (اشتد). وقد نبّه الجاحظ على أن الفصاحة مقترنة بتوسط اللفظ بين الوحشي والسوقي، إذ قال: (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من المتكلم يفهمه الوحشي

من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي)، ومخالفته القياس، نحو: (الباذلون نفوسهم ونفيسهم ... في حب مالكنا العظيم الأجلل)، وحقه الإدغام.

وأما **فصاحة الكلام**، فتكون بسهولة اللفظ، ووضوح المعنى، وجودة السَّبكِ، وتلاؤم الكلمات، وفصاحة المفردات، وأن يكون غير مُتكَلَّف ولا مخالفٍ للقواعد ولا ضعيف التأليف، ليس فيه تعقيدٌ لفظيٌّ ولا معنويّ، نحو قول بعضهم:

وقبر حرب بمكان قفر ..... وليس قرب قبر حرب قبر

وضعف التأليف نحو:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ..... وحسن فعل كما يجزى سنمّارُ

فقد عاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة. (في بيته يؤتى الحَكَم، كناطح صخرة يوما ليوهنها...)

وأما التعقيد فيكون بخفاء معنى الكلام نحو:

وما مثله في الناس إلا مملكا ..... أبو أمه حي أبوه يقاربه

وأصله:

وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلاَّ أبوه أبو أمه مملَّكاً

وأما **فصاحة المتكلم** فتكون باقتداره على التعبير دون تلعثم ولا تلكُّؤٍ، فما شاء من معنى استطاع التعبير عنه بيُسْرٍ وسُهولةٍ، وبكلام فصيح المفردات والجُمَل والتّراكيب، وأن يكون مُلمّاً باللّغة عالماً بقواعدها، واسع الاطلاع على مفرداتها ومعانيها الدقيقة، كثير النظر في كتب الأدب، مطّلعاً على أقوال كبار الفصحاء، له درايةٌ بأساليب العرب في شعرهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم، حافظاً لطائفةٍ جَمَّةٍ من عيون كلام فصائحهم وبلغائهم من أهل النثر وأهل الشعر، وأن يمارس موهِبَتَهُ بالتطبيقات العمليّة.

وأن يكون سليم اللسان من العيوب كاللكنة (لحن الكلام)، واللجلجة (كلام مبهم)، والفأفأة (التردد في الفاء)، والتعتعة (في الحديث الصحيح: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»)، وكاللثغة (تغيير في الحرف) وتكون في أحرف، منها الراء بإبدالها غينا، والسين بإبدالها ثاء، نحو: عَمْغ في عَمْرو، وبِثْم الله في بسم الله، ويُذكر أن واصل بن عطاء كانت به لثغة شنيعة، فجاهد لسانه حتى تخلص منها، وقد نقل أنه قام يوما خطيبا يحرض على قتل بشار بن برد لزندقته فقال (بتصرف): أما لهذا الأعمى المكنى بأبي معاذ (بشار بن برد) من يقتله، أما والله لولا الغيلة لبعثت إليه (أرسلت) من يبعج (يبقر) بطنه على مضجعه (فراشه)، ويقتله في جوف منزله (داره)). وإن كانت اللثغة معيبة في أرباب الكلام والخطابة، فإنها مستظرفة في النساء، قال أحد الشعراء:

رَشَأٌ مِنْ آلِ يافِثْ ..... طَرْفُهُ لِلسِحرِ نافِثْ

مالَهُ في الحُسنِ ثانٍ ..... وَهُوَ لِلبَدْرَيْنِ ثالِثْ

مُخْطِئُ السِّينِ إلى ثا ..... ءِ المثاني وَالمثالِثْ

قلْتُ عِدني بوصالٍ ..... قالَ دعْ هذي الوَثاوِثْ

ومن جودة الآلة أن يكون اللسان عريضا ثخينا يصك جوانب الفم ويملأ تجاويفه ولا يترك خلاء لمرور الهواء، وقد وذكر الجاحظ أن هذا يجري على الحيوان أيضا، فكلما كان الطائر والسبع والبهيمة أعرض لسانا، كان أفصح وأبين وأحكى لما يلقّن ولما يسمع، كالببغاء والغراب وما أشبه ذلك، ولا يخفى أن جهارة الصوت عون على فصاحة اللسان.

- **البلاغة:**

قال أحمد بن فارس في "مقاييس اللغة": الباء واللام والغين أصل واحد وهو الوصول إلى الشيء، تقول: بلغت المكان، إذا وصلت إليه، وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان،

لأنه يبلغ بها ما يريده. وقال الراغب الأصفهاني في "مفردات غريب القرآن": البلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد.

ووردت تعريفات كثيرة قديمة للبلاغة، منها قول الخليل بن أحمد: ما قرب طرفاه وبعد منتهاه، وقول آخر: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، وقول ابن المقفع: قلة الحَصَر، والجراءة على البشر، وقول ابن المعتز: بلوغ المعنى، ولما يطل سَفَر الكلام. وقال بعضهم: البلاغة إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. وقال آخرون: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه. وسأل معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) أعرابيا، ما تعدون الفصاحة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال: وما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ.

والبلاغة تكون وصفا للكلام إذا وافق مقتضى الحال مع فصاحته، بأن يكون لكل مقام مقال، قال الحطيئة لعمر بن الخطاب يستعطفه:

تَحَنّن عَلَيّ هداك المليك ..... فإن لكل مقام مقالا

ومقتضى الحال يختلف باختلاف مقامات الكلام، كالتنكير والتعريف، والذكر والحذف، والإطلاق والتقييد، والتقديم والتأخير، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب. وذلك أن (الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها).

وتكون البلاغة وصفا للمتكلم إذا كان يوازن بين المعاني وأقدار المخاطبين، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، وذلك لا يتأتى إلا لذي الملكة، وروي أنه قيل لبشار بن برد: إنك لتجيء بالأمر المتفاوت، قال: وما ذاك؟ قال: إنك لتقول:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ..... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ..... ذرا منبر صلى علينا وسلما

ثم تقول:

ربابة ربة البيت ..... تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات ..... وديك حسن الصوت

فقال: كل شيء في موضعه، قولي هذا أحب لجاريتي وأحسن عندها من "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل". ولذلك تستعمل في الفخر الجزالة وفي الغزل الرقة، قال صفي الدين الحلي:

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ..... يوما وإن حكموا كانوا موازينا

تدرعوا العقل جلبابا فإن حميت ..... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا

وقال آخر في الغزل:

بهذا الفتور وهذا الهيف ..... يهون على عاشقيك التلف

أطرت القلوب بهذا الجمال ..... وأوقعتها في الأسى والأسف